

إرادة حرة أم دماغ مبرمج؟

شون نيكولس

مجلة ساينتيفيك اميريكان

19 أغسطس 2008

Free Will versus the Programmed Brain

By Shaun Nichols

Scientific American Magazine

ترجمة: علي الحارس

شون نيكولس

أستاذ في جامعة اريزونا.
دكتوراه في الفلسفة من
جامعة روتغرز.
من الأسماء اللامعة في
مجال الفلسفة
التجريبية.

الكثير من العلماء والفلاسفة مقتنعون بأن الإرادة الحرة أمر لا وجود له على الإطلاق. فبرأي هؤلاء المشككين أن كل ما يحصل يتقرر مسبقا بموجب ما حصل في السابق. أي أن أفعالنا ما هي إلا عواقب محتمة للأحداث التي أدت إلى هذه الأفعال. وهذه الحقيقة تجعل من المستحيل لأي شخص أن يقوم بأي تصرف يعد حرا على المستوى الفعلي. ويعود هذا النوع من

الحكم حول الإرادة غير الحرة إلى فلسفة سادت في القرن الثامن عشر. لكن هذه الفكرة لقيت مؤخرا الكثير جدا من الاهتمام من خلال كتب العلوم الشعبية ومقالات المجلات. فهل هنالك ما يدعو للقلق؟ ولو اقتنع الناس بأنهم لا يمتلكون إرادة حرة. فماذا ستكون عواقب ذلك على صعيد المسؤولية الأخلاقية؟

في دراسة بارعة جديدة قام عالما النفس كاثلين فوس (Kathleen Vohs) من جامعة مينيسوتا وجوناثان سكولار (Jonathan Schooler) من جامعة كاليفورنيا في مدينة سانتاباربارا. باختبار هذا السؤال من خلال تجربة تم إعطاء المشاركين فيها مقتطفات من كتاب (الفرضية المذهلة). وهو كتاب في العلوم الشعبية للكاتب فرانسيس كريك¹. وحصل نصف المشاركين على مقطع يقول أن الإرادة الحرة أمر لا وجود له ويبدأ بما يلي: «أنت: أفرحك وأترحك. ذكرياتك وطموحاتك. إحساسك بهويتك الشخصية والإرادة الحرة. كل ذلك ما هو في الحقيقة إلا السلوك الذي يبدية الجمع الضخم من الخلايا العصبية وشركائها من الجزئيات. فما أنت. أيها الإنسان. إلا حزمة من الأعصاب». ثم يتابع المقطع (1) فرانسيس كريك (Francis Crick): عالم في الكيمياء الحيوية حصل على جائزة نوبل لاكتشافه. بالاشتراك مع زميله جيمس واتسون (James Watson). البنية الحلزونية المزدوجة للدي أن إيه.

إرادة حرة أم دماغ مبرمج؟

بالحديث عن الأساس العصبي لعملية اتخاذ القرارات فيدعي بأنه «على الرغم من أننا نبدو وكأننا نمتلك الإرادة الحرة. ففي الحقيقة. إن خياراتنا قد تم البت بشأنها لنا مسبقا وليس بإمكاننا أن نغير ذلك». أما المشاركون الآخرون في التجربة فتسلموا مقطعا آخر يشبه الأول في لغته العلمية. لكنه كان يدور حول أهمية دراسة الوعي دون أي ذكر للإرادة الحرة.

وبعد قراءة المقتطفات. أكمل كافة المشاركين الإجابة على أسئلة استبيان حول ما يعتقدونه بشأن الإرادة الحرة. ثم تلا ذلك الجزء المبدع من التجربة. حيث طلب من المشاركين أن يحلوا 20 مسألة حسابية تظهر على شاشة كمبيوتر. ولكن تم الطلب منهم أيضا أن يضغطوا زر المسافة عند ظهور كل سؤال. وإلا فإن خطأ برمجيا سوف يؤدي إلى ظهور الحل أيضا. وأخبر المشاركون أنه ما من أحد سيكون بإمكانه أن يعلم إن هم ضغطوا زر المسافة. ولكنهم ينبغي أن لا يلجؤوا إلى الغش.

جاءت النتائج واضحة: فمن قرأ مقطع الإرادة غير الحرة ارتكب الغش أكثر بكثير من غيره! (أي أنهم ضغطوا زر المسافة أقل بكثير من باقي المشاركين). فضلا عن ذلك. وجد الباحثان أن مقدار الغش الذي يرتكبه المشارك يرتبط بمدى معارضته للإرادة الحرة في إجابته على أسئلة الاستبيان.

أنواع السلوك اللاأخلاقي

طرح الفلاسفة مؤخرا أسئلة حول بعض عناصر الدراسة. فمثلا. يقدم مقطع الإرادة غير الحرة رؤية عامة سوداوية. وهذا ربما يؤدي لوحده إلى الغش في مثل هذا السياق (فيقول المشارك لنفسه: «يا إلهي. إذا كنت مجرد حزمة من الأعصاب. فثمة أمور أهم ينبغي أن أقلق بشأنها مقارنة بالتأديب في هذه التجربة»). كما أن حالات الغش قد تزداد عندما يقدم إلى الناس نص يفترض أن كل الأشكال المحسوسة للحياة ستتعرض للتدمير في النهاية بتأثير السباق المحموم للكون.

إرادة حرة أم دماغ مبرمج؟

من جهة أخرى، تتوافق النتائج مع ما تنبأ به بعض الفلاسفة. إذ يبدو أن المفهوم الغربي للإرادة الحرة مرتبط بشدة مع إحساسنا بالمسؤولية الأخلاقية. وحس الذنب بالأخطاء، والفخر بالإنجازات. إننا نحمل أنفسنا المسؤولية تماما عندما نعتقد بأن أفعالنا صادرة عن الإرادة الحرة. وعلى ضوء هذا، ليس مفاجئا أن الناس يتصرفون بحس أخلاقي أدنى عندما يشككون بالإرادة الحرة. فضلا عن ذلك، تتوافق نتائج دراسة فوس وسكولر مع الفكرة القائلة بأن الناس يتصرفون بحس أدنى من المسؤولية عندما يعتبرون أن أفعالهم خارجة عن سيطرتهم. فإذا كان المرء لا يجد فائدة ترتجى من محاولة التصرف على نحو جيد، انخفض احتمال قيامه بهذه المحاولة.

وحتى إن كان للتخلي عن الإرادة الحرة هذه الآثار الضارة، فقد يتساءل المرء عن الحد الذي يمكن أن تتماهى إليه؛ ومن بين الأسئلة المطروحة ما إن كانت هذه الآثار تتعدى المجال الأخلاقي. فالغش في تجربة نفسية لا يبدو على مستوى عال من السوء، ومن المفترض أن هذه التجربة لا تؤدي أيضا إلى الاندفاع لتصرفات إجرامية ضمن المشاركين الذين قرؤوا مقطع الإرادة غير الحرة، كما أن نفورنا الأخلاقي من قتل الآخرين وإيذائهم يكون في العادة أقوى بكثير من أن يتفكك بتأثير انطباعات عن مفهوم التصميم. وعلى الرغم من ذلك قد يبدو لنا بوضوح في ما بعد أن الأنواع الأخرى للسلوك اللاأخلاقي، كالغش في المدرسة، يتأثر برفض الإرادة الحرة.

ديمومة التأثير

يتبادر سؤال آخر للذهن هنا. وهو: كم يدوم ذلك التأثير؟ تقترح دراسة فوس وسكولر أنه فور أن يشكك الناس بوجود الإرادة الحرة، فإنهم يرتكبون الغش أكثر. ولكن ماذا يحدث لو أن هؤلاء الناس أحضروا إلى المختبر مرة أخرى بعد أسبوعين؟ إذ ربما نكتشف أنهم قد يستمرون في تشكيكهم ذلك ولكنهم لن يتمادوا في الغش أكثر.

إرادة حرة أم دماغ مبرمج؟

ليس هنالك من دليل مباشر يسمح بالإجابة على هذا السؤال. ولكن ثمة دليل اكتشف مؤخرا حول قضية مشابهة. ففي تجربة أجراها الفيلسوف هاغوب سركيسيان (Hagop Sarkissian) وزملاؤه من جامعة سيتي (City Univeristy) في ولاية نيويورك على أشخاص من هونغ كونغ والهند وكولومبيا والولايات المتحدة طلب من المشاركين الإجابة على أسئلة استبيان حول الحتمية (الجبرية) والمسؤولية الأخلاقية. وشرح لهم مفهوم الحتمية بطريقة مبسطة. وطلب منهم الإجابة على السؤال التالي: هل يسود الكون مبدأ الحتمية؟ وإذا كان المرء يعيش في كون حتمي فهل تترتب على أفعاله مسؤولية أخلاقية؟

على الرغم من تعدد ثقافات المشاركين كانت معظم الأجوبة تنفي حتمية الكون وتؤكد على انعدام المسؤولية عن الأفعال في الكون الحتمي؛ ولا عجب في هذه الإجابة لأن معظم الناس يرغبون بأن يؤمنوا بأن لهم إرادة حرة. ولكن المثير للاهتمام هو إجابات المجموعة الأصغر التي قالت بأن الكون حتمي؛ وذلك لأنهم، وعلى اختلاف مشاربهم، أقرروا بمعظمهم بمسؤولية الناس عن أفعالهم في الكون الحتمي؛ وتفسير ذلك أن الإيمان بالحتمية لا يعني التخلي عن القيم الأخلاقية. فضلا عن ذلك، فإن هذا الإيمان ينقض نفي الحتمية للمسؤولية الأخلاقية.

إن الكثير من الفلاسفة والعلماء لا يؤمنون بوجود الإرادة الحرة؛ وبغياب أية دراسة شاملة حول هذا الموضوع. يمكن القول على نحو ما من المعقولية أن هؤلاء الفلاسفة والعلماء أقل التزاما أخلاقيا من زملائهم الذين يؤمنون بالإرادة الحرة. ولكن هذا يطرح سؤالا محيرا آخر حول الإيمان بالإرادة الحرة؛ فمن يجاهر بنفيه للإرادة الحرة تجده يستمر في تحميل نفسه المسؤولية عن أفعاله وتراه يشعر بالذنب إن قام بإساءة ما. فهل حاول هؤلاء في الأصل أن يوقفوا بين مواقفهم الحياتية العامة ونفيهم للإرادة الحرة؟ أم أنهم عندما يجابههم الواقع فيحاولوا تقرير ما يجب فعله على الوجه الصحيح، يرجعون إلى الإيمان بأنهم يمتلكون إرادة حرة في النهاية.